وسبعين ضعفاً . وقسم السنة الى ٣٦٥ يوماً واشار على الملاحين ان يسترشدوا بالدب الاصغر بدل الدب الاكبر في سلك البحار لانهُ اقرب منهُ الى القطب الشمالي . وقد قال فلوطرخس ان طاليس كان يقول بكرويَّة الارض الاَّ ان ذلك غير محقق

وعلَّم ان الماء اصل الموجودات الماديَّة ونسب جذب الكهرباء والمغنطيس الى قوة روحيَّة كامنة فيها كما تقدم وحثَّ تلامذتهُ على درس الظواهر الطبيعيَّة لاجل معرفة اسبابها

وكان اشتغالهُ بالفلسفة مانعاً لهُ من الزواج ولكنهُ تبنَّى ابن اخته وقال البعض انهُ تزوج بشاعرة مصريَّة وان هذا ابنهُ منها . ولم يكن من اهل اليسار فالامهُ يعضد على ذلك وعلى ان علمهُ الكثير لم يكسبهُ مالاً فضمن كروماً من الزيتون في مدة قدَّر فيها الكسب فكسب مالاً وافراً ولكنهُ ردَّهُ على اصحابهِ بعد ان اثبت بالامتحان انهُ لو اراد المال لكان لهُ وفرٌ منهُ . وهذا يدل على انهُ كان يطلب الحقائق لذاتها لا لنفع ينالهُ منها . وسألهُ احد تلامذتهِ قائلاً بمَ اكافئك على افضالك الكثيرة عليَّ فقال لهُ اذا انتصبتَ للتدريس وذكرتَ لتلامذتك شيئاً من اقوالي فقل لهم هذا قول طاليس فانك ان فعلتَ ذلك اظهرت اتضاعك وجازيتني افضل جزاء

وقيل انهُ لما صار شيخاً طاعناً في السن خرجت بهِ امتهُ ليرقب النجوم فعثرت رجلهُ وسقط في حفرة فقالت لهُ عجباً ممن يرصد نجوم السماء وهو لا يرى ما تحت قدميهِ

ونصب اهالي مليتس تمثالاً على قبرهِ كتبوا عليهِ " ان مليتس اجمل المدن الايونية ولد فيها طاليس الفلكي العظيم احكم البشر في كل المعارف " . وقد خربت هذه المدينة الآن وعفت آثارها ولكن اسم طاليس سيبقى خالداً مدى الادهار

التخيل والتصوير

العقل والخيال يتنازعان الانسان من المهد الى اللحد فيخضع لسلطان الواحد تارة ولحكم الآخر اُخرى ويجمع بين الاثنين او يفرّق بينهما او يغلب احدهما الى الآخر تبعاً لمقتضيات الزمان والمكان واساليب التربية والمعيشة . وقد يُظَنُّ بادىء بدء ان سلطان العقل اقوى من سلطان الخيال وحكمهُ ارسخ في النفوس والانقياد اليهِ اسهل على الطباع لكنَّ الامر على ضدِّ ذلك لان الخيال كان الحاكم المطلق من حين دَرَج الانسان على

وجهِ البسيطة ولم يزل نافذ الكلمة في جميع الشؤون فهو الذي انشأ اكثر الاديان والشعائر الدينيَّة وسلط بعض الناس على بعض فخضع فريق منهم للآخر خضوع العابد للمعبود وجرَّد لهم من جماد الارض وحيوانها صورًا آلهوها وارواحًا عبدوها. وهو الذي انطق هوميروس بما سحر عقول المتقدمين والمتاخرين . وارشد ازميل فيدياس فصنع تلك التماثيل التي لم ترها عين تعشق الجمال الَّا عشقتها وانطق شعراء الجاهليَّة بما علَّقوهُ للعبادة في البيت الحرام

وغنيٌّ عن البيان ان ابناء هذا العصر قد رفعوا شأن العقل وسعوا وراء النفع اكثر من كل من تقدَّمهم لكنهم لم ينبذوا حكم الخيال ولا حرَّروا النفوس من سلطانهِ فيؤلف نيوتن او بسكال او بولر او غيرهم من اكابر الفلاسفة كتابًا في اسمى المواضيع العقليَّة ويحلُّ فيهِ اغمض المسائل الطبيعيَّة ويطبع منهُ الف نسخة تتآكل نصفها الجرذان ويدفن النصف الآخر في المكاتب العموميَّة حيث تخيم عليهِ عناكب النسيان . ويؤلف سكُت او دكنس اوديماس او زولا او نحوهم من القصَّاصين قصَّة خياليَّة تسلي الخواطر ولو لم تفد احدًا فائدة تذكر فلا تمضي عليها سنة حتى تطبع مرارًا وبباع منها عشرات الالوف ويقرأها الكبار والصغار على اختلاف الطبقات والمراتب من الملوك الى السوقة ومن الاغنياء الى الصعاليك

ولا ينكر ان الاوربيين والاميركيين قد رفعوا منار العقل ونشروا لواء العلم لكنهم لم ينقادوا اليهما انقيادهم الى سلطة الخيال وحكم العواطف . فقد رَوَينا بالامس ان العالم تندل الشهير مضى منذ سنين قليلة الى الولايات المتحدة الاميركية بدعوة خاصة من اكابر علمائها وخواص ادبائها لكي يخطب في عواصمها خطبًا علميَّة ممَّا اشتهر بالبحث في موضوعهِ وتشوَّف الناس الى استماع شرحهِ منهُ . فتأهب لهذا السفر وملأ الصناديق الكبيرة بالآلات والادوات وتألفت لجنة في اميركا لإعداد المنتديات في عواصمها وترغيب الناس في الحضور اليها . والاستاذ تندل من افصح خطباء العصر واطولهم باعًا في ايضاح المسائل العلميَّة بالصور والرسوم والتجارب الَّتي تتشوَّف النفس الى مشاهدتها فخطب في بوستن وفيلادلفيا وبلتيمور ووشنطون ونيويورك وغيرها من العواصم واطنبت الجرائد في مدحهِ ومدح خطبهِ وحثت الناس على استماعها ومع ذلك كلهِ لم يبلغ المال المجموع من الذين حضروا لاستماعها سوى ثلاثة وعشرين الف ريال ذهب نصفها نفقة على اعداد المعدَّات اللازمة لها . ويقابل ذلك ان المسيو كوكلين الممثل المشهور اقام ثلاثة اسابيع

في مدينة فينّا وبعض مدن روسيا فجمع منها سبعة عشر الف جنيه وان سارة برنار المغنية مثّلت خمسين ليلة في باريس فكان ربحها منها ثمانية عشر الف جنيه. فان بضاعة العقل من بضاعة الخيال والعواطف

ويسهل على القارىء تصديق ما تقدم عن كرم الناس على اهل الغناء والتمثيل لكثرة ما قرأناهُ عن كرم الخلفاء والبرامكة على الشعراء والمغنين لكن قد لا يخطر على البال ان ما يتخيلهُ الخيال فيأمر اليد بصنعهِ حتى يُحسَب من نتائج الصناعة يكون لهُ هذا الوقع من النفوس لا سيّما وان صناعة اليد محتقرة غالباً والصنّاع من اضعف الناس شأناً . اما اذا علم القارىء ان الصورة الواحدة من صور رفائيل بيعت بسبعين الف جنيه وان صوراً كثيرة من قلم غيرهِ بيعت الصورة منها بعشرين الف جنيه او اكثر وان بعض معارض الصور الكبيرة كالمعرض المجتمع صوَرًا لنير رفائيل ويدّعي انها من صوَرهِ ولو بحث اصحابها حقهم وعرَض رفائيل للانتقاد وهو في غنىً عنهُ وان الصور الكبيرة لا تعرض للبيع ولو عُرِضَت لبيعت باثمان تدهش العقول وان معارض اوربا ومتاحفها وقصور ملوكها ودور اغنيائها تحسب الصور حلياً لا غنى عنهُ وزينة لا تزدان بغيرها اذا علم ذلك كلهُ رأى ان سلطان الخيال لم يزل سائدًا في كل شيء حتى ان ما يحول في مخيلة المصور المعوز فيرسمهُ على القرطاس يصبح اثمن من جواهر الارض

وقد اختلف الباحثون في اصل الصور والداعي الذي دعا الناس اولاً الى التصوير . فذهب بعضهم الى ان الزينة والترف كانا اول باعث بعث اسلافنا الاقدمين على رسم الصور لتزيين امتعتهم وزخرفها بعد ان اكتفوا من الحاجيّات ولم تعد ضروريّة العيش تضطرهم الى قضاء الوقت كلهِ في السعي والكدح . اي ان الرامي اذا اصاب صيدًا وافرًا في صباحهِ فاكل وتنعّم حملهُ حب الترف والزينة على تحلية قوسهِ فيرسم عليها ما يبدو لهُ من الرسوم البديعة . وذهب غيرهم الى ان الانسان ميّال بالطبع الى تمثيل الموجودات الحيّة ومحاكاتها فيصورها بمقتضى هذا الميل . وقد اطّلعنا الآن على مذهب جديد للمسيو لازار بوبوف رأينا دلائلهُ عليهِ ناطقة وشواهدهُ صادقة ومفادهُ ان الانسان لم يرسم في بادىء امرهِ سوى صور الحيوانات التي كان يصيدها بدليل انهُ لم يكتشف بين آثارهِ القديمة سوى صور الاسماك والوعول والافيال والاسماك ونحوها كالصورة المرسومة في الصفحة التالية فانها صورة فيل من الافيال الشعراء المنقرضة وهي مرسومة على قطعة عاج من انيابها ووُجدت بين آثار الاقدمين من سكان اوربا الذين سكنوها

قبل الدور الجليدي وقبل ان عرفوا استخراج الحديد والنحاس. وقد رُسمت هذه الصور لا للزينة والترف لانها ليست مما يزدان به ولا للتمتع بجمال الطبيعة لانهُ لم يوجد بين آثار الاقدمين صورة نبات ولا زهرة مما هو اولى بان يحسب جميلاً بل لكي يستعان بها على صيد الوحوش واقتناصها كأنها عوذ او رقًى او نحو ذلك

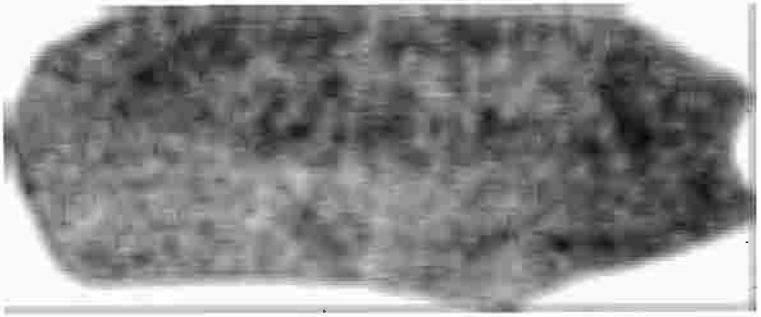

ومما قالهُ في هذا الصدد ان الناس في تلك العصور الغابرة لم يكونوا ارقى ادراكاً من المتوحشين في هذا العصر ولذلك لم يكونوا يقصدون بصورهم ورسومهم غايات اسمى من الغايات التي يقصدها المتوحشون الآن. وقد قامت الدلائل الكثيرة على ان المتوحشين لا يميزون جيدًا بين الحقيقة والخيال فاذا رأى الواحد منهم خيال صديقهِ في نومهِ لم يحسب انهُ صورة ذهنيَّة منفصلة عن ذلك الصديق تمام الانفصال بل حسب ان ما رآهُ في نومهِ هو مثل الصورة ٱلَّتي تنعكس عن الماء وان الصورتين متصلتان بصاحبها حتى اذا انعكست صورة انسان عن ماء فيهِ تمساح وقبض التمساح على الصورة قبض على صاحبها ايضاً كما تزعم قبائل الباسوتو ٱلَّتي في جنوبي افريقية. وعند غيرهم من القبائل تطلق الكلمة الواحدة على النفس والصورة والخيال (وذلك شائع في العربيَّة ايضاً فان الظل والطيف والخيال والشخص تأتي كلها بمعنىً واحد) وهذا يحدو بنا على الحكم بان الاولين كانوا يحسبون ان بين الحيوان وصورتهِ ارتباطاً متيناً حتى اذا وقع بالصورة حادث وقع ذلك الحادث بالحيوان ايضاً. ولذلك يخشى كثيرون من المتوحشين الآن من تصوير صورهم مخافة ان يأخذ صورتهم يصير قادرًا على الاضرار بهم. ويقال ان بعض هنود اميركا يصنعون صور اعدائهم ويطعنونها في صدورها اعتقادًا منهم ان من تُطعَن صورتهُ يقترب اجلهُ. واهالي بورنيو يصنعون صورة من شمع لمن يريدون ان يسحروهُ ويذيبونها بالنار ويقولون ان المصوَّر يذوب رويدًا رويدًا كما تذوب صورتهُ. وكان اهالي اوربا يعتقدون

هذا الاعتقاد في القرون الوسطى ويتهمون اليهود بعمل صور الناس من الشمع واذابتها في النار فيموت الناس الذين تمثلهم تلك الصور (١)

واثبت بعض الباحثين ان هنود اميركا يصورون صور الحيوانات التي يريدون صيدها ويطعنونها بحربة في صدرها وهم يتفاءلون بذلك حاسبين انهم سيصيبون ذلك الصيد لا محالة وتقع نبالهم في صدره . وعند بعضهم انهُ اذا رسم الصائد صورة الحيوان على خشبة وابتهل اليها اصاب ذلك الحيوان لامحالة

ويظهر من هذا كلهِ ما يترجح منهُ ان الاقدمين كانوا يصوّرون صور الحيوانات التي يرغبون في صيدها لهذه الغاية مثل المتأخرين . ثم ان من يمعن نظرهُ في الصور القديمة يرى انها ليست صور الحيوانات نفسها بل صور اخيلتها كأن اولئك الناس حسبوا ان خيال الحيوان يقوم مقام شخصهِ فرسموهُ ونقشوهُ على الخشب والعظم والعاج لكي يتسلطوا بهِ على الحيوان نفسهِ في صيدهِ فكان الرجل منهم يمضي الى الصيد وهو صورة الحيوان الذي يريدهُ كما يفعل هنود اميركا الآن املاً بالعثور بهِ فكانت هذه الصور رُقًى يُرقَى بها الحيوان . ويلمح الفرق في صيد ما يسنح لهُ من الوحوش بتفاوت ما بينها وبين صورها من المشابهة

وجملة القول ان صناعة التصوير والنقش نشأت من الوهم وبنيت على الخيال وكانت في بدء امرها ذريعة للتعيش والاغتيال ولكنها ارتقت بارتقاء الناس في الحضارة حتى بلغت اوج مجدها عند اليونان الذين قصدوا بها محاكاة الاشياء الطبيعية محاكاة غير مقيدة بالاوضاع الظاهرة بل مطلقة يتصرّف فيها الخيال وقوة الاختراع تصرّف مجرّد صورة الجمال الحقيقي من الموجودات وافرغها في ما يصوّرهُ وينقشهُ

(١) قال ابن خلدون غفر الله لهُ ((ورأينا بالمغرب من يصور صورة الشخص المحقود بخواص اشياء مقابلة لما نواهُ وحاولهُ موجودة بالمحقود وامثال تلك المثالي من اسماء وصفات في التاليف والتفريق ثم يتكلم على تلك الصورة التي اقامها مقام الشخص المحقود عينًا او معنًى ثم ينفث من ريقهِ بعد اجتماعهِ في فيهِ بتكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك الملى في سبب اعدهُ لذلك تفاؤلاً بالعقد والالزام واخذ العهد على من اشركهُ من الجن في نفثهِ في فعلهِ ذلك استشعارًا للعزيمة بالعزم . وتلك الاسماء السيئة روح خبيثة تخرج منهُ مع النفخ ممتلئة بريقهِ الخارج من فيهِ بالنفث فتنزل عنها موكلة خبيثة ويقع عن ذلك بالمحقود ما يحاوله الساحر . وشاهدنا ايضًا من المتحيلين للسحر وعملهِ من يشير الى كساء او جلد ويتكلم عليهِ في سرو فاذا هو مقطوع مخرّق ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالحي فاذا اعلموها ساقطة من بطونها الى الارض وسمعنا ان بارض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فينخبث قلبهُ ويقع ميتًا ويغب عن قلبهِ فلا يوجد في حشاهُ ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من حبوبها شيء))